القواعد والضوابط

من تفسير سورة الكهف

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله تعالى

جمع

مساعد بن عبدالله السلمان

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حسنا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً)[الكهف: ٣].

وقوله: (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً) أي باقين فيه أبداً، إلى ما لا نهاية، فلا مرض ولا موت، ولا جوع ولا عطش، ولا حر ولا برد، كل شيء كامل من جميع الوجوه.

واعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الجنَّة موجودة الآن، وأنها مؤبدة، وأن النار موجودة الآن، وأنها مؤبدة، وقد جاء هذا في القرآن، فآيات التأبيد بالنسبة لأصحاب اليمين كثيرة، أما بالنسبة لأصحاب الشمال فقد ذُكر التأبيد في آيات ثلاث:

1- في سورة النساء، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)[النساء: ١٦٨، ١٦٩].

2- في سورة الأحزاب، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً)[الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

3- في سورة الجن في قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)[الجن: ٢٣]، وإذا كانت ثلاثُ آيات من كتاب الله

صريحة في التأبيد فلا ينبغي أن يكون هناك خلاف، كما قيل:

وليس كل خلاف جاء معتبراً **إلاَّ خلافاً له حظٌّ من النَّظرِ

وما ذكر من الخلاف في أبدية النار لا حظَّ له، كيف يقول الخالق العليم: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) ثم يقال: لا أبدية؟ هذا غريب! من أغرب ما يكون، **فانتبهوا للقاعدة في مذهب أهل السنّة والجماعة: أن الجنَّة والنار مخلوقتان الآن؛ لأن الله** ذكر في الجنة (أعدت) وفي النار (أعدت)، وثانياً: أنهما مؤبدتان لا تفنَيان، لا هما ولا من فيهما . [1]

***

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً)[الكهف: ١٣].

قوله : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ) (نَحْنُ) إذا قال قائل: أليس الله واحداً؟ فالجواب: نعم واحد لا شك، لكن لا شك أنه جلَّ وعلا أعظم العظماء، **والأسلوب العربي: إذا أسند الواحدُ إلى نفسه صيغة الجمع فهو يعني أنه عظيم**، ومعلوم أنه لا أحد أعظم من الله تعالى، ولهذا تجد الملوك أو الرؤساء إذا أرادوا أن يُصدروا المراسم يقولون: "نحن فلان بن فلان نأمر بكذا وكذا".

إذن:**كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم.** [2]

***

انظر ص ١٣
انظر ص ٢٦

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)[الكهف: ٤٩].

قال الله تعالى: (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)؛ وذلك لكمال ـ سبحانه وتعالى ـ عدله، فلا يزيد على مسيء سيئة واحدة، ولا يَنقص من محسن حسنة واحدة، قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً)[طه: ١١٢]، وهذه الآية (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) من الصفات المنفية عن الله، **وأكثر الوارد في الصفات الصفات المثبتة كالحياة والعلم والقدرة، وأما ذكر الصفات المنفية فقليل بالنسبة للصفات المثبتة، ولا يتم الإيمان بالصفات المنفية إلاَّ بأمرين:**

الأول: نفي الصفة المنفية.

والثاني: إثبات كمال ضدها.

فالنفي الذي لم يتضمن كمالاً لا يمكن أن يكون في صفات الله، بل لا بد في كل نفي نفاه الله عن نفسه أن يكون متضمناً لإثبات كمال الضد، والنفي إن لم يتضمن كمالاً فقد يكون لعدم قابليته، أي قابلية الموصوف له، وإذا لم يتضمن كمالاً فقد يكون لعجز الموصوف، وإذا كان نفياً محضاً فهو عدمٌ لا كمال فيه، والله تعالى له الصفات الكاملة، كما قال تعالى: (ولله المثل الأعلى)[النحل: ٦٠] أي: الوصف الأكمل.

قلنا: إذا لم يتضمن النفي كمالاً فقد يكون لعدم قابليته،كيف ذلك؟

ألسنا نقول: إن الجدار لا يظلِم؟ بلى، هل هذا كمال للجدار؟ لا، لماذا؟ لأن الجدار لا يقبل أن يوصف بالظلم، ولا يوصف بالعدل، فليس نفي الظلم عن الجدار كمالاً، وقد يكون النفي ـ إذا لم يتضمن كمالاً ـ نقصاً؛ لعجز الموصوف به عنه، لو أنك وصفت شخصاً بأنه لا يظلم بكونه لا يجازي السيئة بمثلها لأنه رجل ضعيف لا يقدر على الانتصار لنفسه؛ لم يكن هذا مدحاً له.

فالخلاصة: أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه وهو نفي؛ فإنه يجب أن نعتقد مع انتفائه ثبوتَ كمال ضده،قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[الاحقاف: ٣٣]، **فعلى هذه القاعدة:** نفى الله (العي) وهو العجز؛ لثبوت كمال ضد العجز: وهو القدرة، إذن نؤمن أن الله له قدرة لا يلحقها عجز، وقال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)[ق: ٣٨]، أي مِن تعب وإعياء؛ وذلك لكمال قدرته جلَّ وعلا. [3]

***

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)[الإسراء: ٤١].

قوله: (وَكَانَ الإنسان) بعض المفسرين يقول: (الإنسان) يعني الكافر، ولكن

---

[3] انظر ص ٨٦

في هذا نظر؛ لأنه لا دليل على تخصيصه بالكافر، بل نقول (الإنسان) من حيث الإنسانية.

إذن إذا مر بك مثل هذا في القرآن الكريم (الإنسان) فلا تحمله على الكافر إلا إذا كان السياق يُعَيِّنُ ذلك،فإذا كان السياق يراد به ذلك؛ صار هذا عاماً يراد به الخاص، لكن إذا لم يكن في السياق ما يعين ذلك؛ فاجعله للعموم، اجعله إنساناً بوصف الإنسانية، والإنسانية إذا غلب عليها الإيمان اضمحل مقتضاها المخالف للفطرة. [4]

***

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)[الكهف: ٥٧].

فإن قيل: ما الجمع بين قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ) وبين قوله تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) ونحوها؟

فالجواب: بأحد وجهين:

الأول: أن الأفضلية باعتبار ما شاركه في أصل المعنى، فقوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) يعني من أظلم ممن ذُكّر بآيات ربه فأعرض عنها، من الذين يُذَكَّرون فيُعرِضون، قد يذكَّر الإنسان فيُعرض، لكن أشد ما يكون: أن يذكر بآيات الله ثم يعرض عنها، وفي افتراء

---

[4] انظر ص ٩٧

الكذب قد يفتري الإنسان الكذب على فلان وفلان، وأعظم ما يكون الافتراء عليه هو الله، وأنت **إذا أخذت بهذه القاعدة سلمت من إشكال كبير.**

الثاني: وقيل: إن "أظلم" و"أظلم" يشتركان في الأظلمية ويتساويان فيها بالنسبة لغيرهما، وفيه نظر لأنه لا يمكن أن نقول: إنّ من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها أنه يساوي من افترى على الله كذباً، أو من منع مساجد الله أن يُذْكر فيها اسمه يساوي من كذب على الله! ونحو ذلك. [5]

***

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً)[الكهف: ٧٩].

قوله : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) يعني: أن أجعل فيها عيباً، لماذا؟ قال: (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبا) فأردت أن أعيبها حتى إذا مرت بهذا الملك، قال: هذه سفينة معيبة لا حاجة لي فيها؛ لأنه لا يأخذ إلا السفن الصالحة الجيدة، أما هذه فلا حاجة له فيها، فصار فعل الخضر من باب دفع أشد الضررين بأخفهما، ومنه يؤخذ فائدة عظيمة وهي:**إتلاف بعض الشيء لإصلاح باقيه** ، والأطباء يعملون به، تجده يأخذ من الفخذ قطعة فيصلح بها عيباً في الوجه، أو في الرأس، أو ما شابه ذلك، وأخذ منه العلماء - رحمهم الله - أن الوقف إذا دَمَر وخرب فلا بأس أن يباع بعضه، ويصرف ثمنه في إصلاح باقيه. [6]

انظر ص ١٠٢

انظر ص ١٢١

***